اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (٨) | الآيات [٥٢ : ٦٤]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

نستكمل بإذن الله -عز وجل- ما بدأناه من وقفات مع سورة الأعراف.

هذا المجلس نتدارس فيه سورة الأعراف، وهذا هو المجلس الثامن بإذن الله -سبحانه وتعالى-، أسأل الله -عز وجل- أن يتقبل منا، وأن يجعل هذه الأعمال خالصة لوجهه يوم نلقاه -سبحانه وتعالى-، وأن يجعلنا جميعًا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته -سبحانه وتعالى-، وأن يستعملنا لتطبيق معاني كتابه -سبحانه وتعالى-.

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

توقفنا بعد آية واحد وخمسين، كانت آخر آية تكلمنا عنها في المرة الماضية عن هؤلاء الناس الذين أدخلهم الله -عز وجل- النار وهم يستحقون ذلك؛ لأنهم {اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، فكانوا يتعاملون مع الدين تعامل اللاعب اللاهي المستهزئ؛ وهذا بسبب غرور الحياة الدنيا.

يقول تعالى: {وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، الاغترار **هو أن تعتقد في الشيء فوق قيمته**، تكلمنا عنه بالتفصيل في (المجلس الأول لتفسير سورة فاطر).

يقول تعالى: {وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا}، فينساهم الله -عز وجل- من الخير ولا ينساهم من الشر -كما روي عن بعض السلف-، ويتركهم الله -عز وجل- في النار كما تركوا الدين وأعرضوا عنه، {فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} أي: وكما كانوا أيضًا بآياتنا يجحدون.

من المواضيع اللي تكلمنا عنها وقلنا إنها ستتكرر معنا في سورة الأعراف قضية الآيات، -أما قضية الخلق والربوبية فهي واضحة وجلية في سورة الأنعام-.

لكن **القضية في سورة الأعراف هي قضية إرسال الرسل، وأن هؤلاء الرسل معهم آيات من الله -عز وجل- سواء كانت آيات تبين معجزة ما أو آيات شرعية لا بد أن يتبعها القوم.**

كيفية تعامل الناس مع هذه الآيات هو محور من محاور سورة الأعراف، فالله -عز وجل- لم يترك الخلق سُدى لم يتركهم هملًا، فأرسل إليهم الرسل، وأرسل مع هؤلاء الرسل الآيات؛ كي يتبع الناس هذه الآيات.

يختلف تعامل الناس مع الآيات:

- وأغلب التعامل مع الآيات يكون إعراضًا وتكذيبًا وجحودًا واستكبارًا واستهزاءً، هذه الألفاظ كلها وردت في السورة،
- أو حتى بعض من أطاع الله -عز وجل- وصدق بالآيات منهم -معاذ الله- من انسلخ منها،
- أو من تردد بين الآيات كأصحاب الأعراف.

هذه النماذج كلها موجودة في سورة الأعراف؛ لذلك كما قلنا من أول ما بدأت السورة قوله تعالى: {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ}، أي لم يتركك الله -عز وجل- سُدى، ولم يتركك هملًا، بل أرسل إليكم أوامر، {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ}.

لنَتَخيل مرة أخرى منظومة السورة معًا:

- بدأت سورة الأعراف بمقدمة واضحة وهي الأوامر، وأن هناك أناسًا أعرضوا فأهلكهم الله -عز وجل-.
- ثم يبعثهم الله يوم القيامة ثم توزن الأعمال بالموازين.
- ثم قص الله -عز وجل- علينا المعركة الأولى التي حدثت بين أبينا آدم وبين الشيطان؛ حتى نستخلص منها العبر.

وكان التركيز في سورة الأعراف -في هذه القصة- على محاور:

- مداخل الشيطان.
- كيفية دخول الشيطان للنفس الإنسانية.
- نقاط الضعف عند آدم -عليه السلام- وبنيه؛ حتى نتجنب هذه النقاط.
- أهداف الشيطان التي يريد أن يصل إليها.
- هل للشيطان غاية محددة يتوقف عندها أو يريد أن يصل بالناس إلى أن يكونوا معه في جهنم خالدين -معاذ الله-.

هذه القضايا كلها ذُكرت في سورة الأعراف.

- ثم بعد ذلك قضية الذين اتبعوا الشيطان، **وكان من أسباب اتباعهم للشيطان أنهم اتبعوا القادة ولم يتبعوا الرسل، وأن هناك دائمًا قلة متحكمة**، وهذه من المعاني الجلية أيضًا في السورة ومن أعمدتها.

فكما قلنا هناك أعمدة لكل سورة، من هذه الأعمدة -في سورة الأعراف- أن هناك قلة متحكمة التي سمتهم السورة: {وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ}، وهؤلاء القلة في المراكز الأولى سواء الزمنية -أي الذين شرعوا الباطل- أو المراكز الاجتماعية، وقال ربنا -سبحانه وتعالى-: {لِكُلٍّ ضِعْفٌ}، سواء للقادة أو للأتباع.

هناك أناس أعرضوا عن شرع الرحمن، واتبعوا تشريعات هؤلاء القادة، فاستحقوا دخول جهنم ولم ينفعهم النقاش الذي دار بينهم في جهنم -معاذ الله-.

- ثم أخبرنا ربنا -سبحانه وتعالى- عن آخر المشاهد وآخر النداءات وهي:
  - نداءات أهل الجنة إلى أهل النار.
  - نداءات أصحاب الأعراف لكلا الفريقين.
  - نداءات أصحاب النار لأهل الجنة بأن يطلبوا الماء أو مما رزقهم الله، ثم جاء الخطاب من أهل الجنة أن الله -عز وجل- حرم هذه الأرزاق على الكافرين.

وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

ثم يقول ربنا -سبحانه وتعالى- بعد انتهاء هذه المشاهد: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ}، أي أن **هؤلاء الذين دخلوا النار وهؤلاء الذين كانوا في الأعراف ليس لهم عذر؛ فقد كان معهم الكتاب، فلا يصح الاعتذار بوجود القادة أو بوجود الرؤساء المستكبرين أو بوجود الزخارف ولا بوجود الفتن؛ فلقد جاءكم كتاب من عند الله -سبحانه وتعالى-.**

قال بعض أهل العلم والإمام الطبري -هذا من دقته في التفسير، فدائمًا ما يحاول الإمام الطبري ربط آيات السورة الواحدة بعضها ببعض-: هذه الآية {وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ} معطوفة على أول آية في السورة - {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} - ثم استطراد طويل في الآيات حتى قوله تعالى: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ} فاتبعوه، -وإن كان بعض المتأخرين اعترض على هذا، لكني أوضح محاولات بعض المفسرين لربط الآيات.

تفصيل الآيات

يقول تعالى: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ}، أي الكتاب الذي أمرتكم في أول السورة باتباعه؛ فليس لكم عذر.

هذا الكتاب أنزلته لكم وحفظته لكم، فكيف تحتجون أن هناك تشريعات أرضية، أو أن هناك قادة شرعوا لنا أو أن هناك زخارف أو فتن؟

يقول تعالى: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ}، هذا الكتاب مفصل واضح لا شبهة فيه ولا عِوَج، لكنهم {يَبْغُونَهَا عِوَجًا}[الأعراف:٤٥]، لكن هذا الكتاب لا يصل إليه العوج.

يقول تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا}[الكهف:١] ثم توجد سكتة -في سورة الكهف- ثم يقول سبحانه: {قَيِّمًا}، أي أن هذا الكتاب قيم، {قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ}.

قالوا: استحباب الوقف هنا كي لا نقول إنه {عِوَجًا قَيِّمًا}، فمن الممكن أن يكون المعنى عوجًا غير واضح، لكن هو ليس له عوج مطلقًا، فلم يجعل الله -عز وجل- له عوجًا مطلقًا؛ فتتوقف حتى لا يظن ظانٌ أنه لم يجعل له عوجًا قيمًا لكن فيه عوجٌ آخر، لا... فالله لم يجعل له عوجًا مطلقًا.

فتتوقف عند قوله: {عِوَجًا} سكتًا لطيفًا، ثم تقول {قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ}، وورد قوله تعالى: {إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}[الإسراء:٩] أيضًا في السورة التي قبلها -سورة الإسراء-.

هذا الكتاب مفصل واضح؛ لذلك أيضًا من المعاني التي في سورة الأعراف أن الآيات تأتي مفصلات، كما سنرى في آيات موسى -عليه السلام- لبني إسرائيل، وأنها كانت آيات مفصلات.

التفصيل له معنيين:

- الوضوح والتمايز.
- وجود فوارق زمنية بين الآيات؛ حتى يكون للناس فترة للاعتبار.

نزل القرآن منجمًا -مفرقًا-، فقال الكفار: {لَوْلا نزل عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً}[الفرقان:٣٢].

نزل القرآن مجموعة آيات تليها مجموعة آيات؛ حيث تأخذ كل مجموعة وقتها من التدبر والتفكر والاعتبار والتطبيق والتنفيذ والمجاهدة، تفعل هكذا بكل مجموعة آيات، ثم تأتي مجموعة أخرى لتؤكد ما قيل في الآيات السابقة وتضيف إليها، ليس هناك تعارضًا بين آيات القرآن.

يقول تعالى: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ}، أي علم منه -سبحانه وتعالى-، يقول تعالى -في سورة النساء-: {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ}[النساء:١٦٦]، أي: مصاحبًا لعلمه أو فيه جزء من علمه فقط.
يقول تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمه إِلَّا بِمَا شَاءَ}[البقرة:٢٥٥]، فلا يحيط أحد بعلم الله -سبحانه وتعالى- مطلقًا.
فهذا الكتاب يحتوي على معارف وعلوم علمنا الله -عز وجل- إياها في القرآن. يقول تعالى: {فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ}، فمن جاء إلى الكتاب بإقبال كان له هدى ورحمة كما في قوله: {هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[الأعراف:٥٢][١].

١ الأعراف:٢٠٣، يوسف:١١١، النحل:٦٤

ماذا ينتظر هؤلاء الذين أعرضوا عن الكتاب؟

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

مآل الأمور

يقول تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ}، أي هل ينتظرون إلا مجيء هذه الوعود التي جاءت في القرآن حقيقة؛ فالتأويل هنا ليس بمعنى التفسير -على قول جماهير المفسرين-، بل معنى التأويل في قوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ} **أي ما تؤول إليه الأمور**.

حيث ذكر الله -عز وجل- في القرآن أمورًا من دخول الجنة والنار وإهلاك الظالمين وتعذيب الفساق وإدخالهم في القبر في عذاب -معاذ الله- والمعيشة الضنك ومثل هذه الوعود، كثير من الناس لا يؤمن إلا إذا رأى هذه الأشياء، فيقولون آمنا بعد أن يلامسوا النار وبعد أن يدخلوها -معاذ الله-.

وسيأتي في الآيات قوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}.

هذه الجملة قالها أهل الإيمان أيضًا - {قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} - في الجنة، لكنهم كانوا يقولونها في الدنيا، فكانوا يعترفون أن الرسل جاءت بالحق في الدنيا.

كثير من الناس لا يعترف بذنبه إلا بعد دخول النار أو بعد نزول ملك الموت حين لا ينفعه ذلك.

فيخبرنا ربنا -سبحانه وتعالى- أن كلمة **تأويله تعني مآل الأمور**، يقول تعالى: {ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[النساء:٥٩][٢]، أي وأحسن عاقبة.

٢ الإسراء:٣٥

قولك إنك تؤول رؤيا يعني أنك تفسر ما ستؤول إليه الرؤيا من أحداث واقعية في الحقيقة، هي الآن مجرد حلم، لكن هذا الحلم سوف يتحول إلى حقائق، وذلك هو علم التأويل، أي ما تؤول إليه هذه الأحلام، فكذلك من معاني تأويل القرآن أي ما ستؤول إليه العاقبة.

أنذر القرآن بمجيء العذاب للمعرضين عن طاعة الله الملك -سبحانه وتعالى- سواء كان ذلك العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

فكثير من الناس لا يؤمن إلا إذا لامس العذاب، فبمجرد رؤية العذاب يقولون آمنا!، كما في قوله تعالى: {رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ}[الدخان:١٢].

فيقول ربنا -سبحانه وتعالى-: {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ}، أي يوم تحقيق الوعد الذي أخبر به الله -سبحانه وتعالى- يوم القيامة، {يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ} أي الذين أعرضوا عن القرآن.

امتحان الآخرة

يقول تعالى: {فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا} هناك أناس تعاملت مع الآيات كأنها غير موجودة، فهناك أناس أعرضوا عنه وأناس كذبت به وأناس جحدت واستكبرت وانسلخت وهناك أناس نسوا الآيات.

يقول تعالى: {يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}، أي يقولون لقد سمعنا هذا الكلام وجاء الرسل بهذا الكلام حقيقة، فحينما يرون النار يقولون بالفعل كان الرسل يتكلمون عن مثل هذه النار، وحينما يرون أهل الإيمان معهم النور يقولون بالفعل صدق المرسلون، {قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}، اقتنعنا الآن أنهم كانوا صادقين.

فيطرحون خيارين كما في قوله: {فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}.

تعود هؤلاء أن معاملاتهم في الدنيا -كما ذكر الإمام الطبري وغيره- تتم بواسطة شيئين، هما إما أن تكون له وَاسطة وإما أن يحاول مرة ثانية، إذًا فإما أن تعطيني فرصة ثانية أو أجتاز الأمر بواسطة.

فيقولون: {فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ}، فيريد شفيعًا، ألم ينتهي امتحان الدنيا ورسبنا فيه، ألا يوجد واسطة للنجاة من العذاب؟ {فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا} فهذا ما تعود عليه، وهذه هي طريقة تفكيره في الدنيا {أَوْ نُرَدُّ}.

وهذا هو الفارق الرئيسي بين امتحانات الدنيا وامتحانات الآخرة، فامتحان الآخرة ليس فيه شفعاء ولا وسائط إلا من يأذن الملك –سبحانه وتعالى– له، ويكون من أهل الإيمان، وليس فيه إعادة، هم يتمنون لو يردوا إلى الدنيا مرة أخرى.

وأخبرنا ربنا –سبحانه وتعالى– في سورة الأنعام: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ}[الأنعام:٢٨]، وذكرنا هذا الأمر بالتفصيل في تفسير سورة الأنعام؛ لأن الإنسان حين يرد إلى الدنيا سوف يرد وينسى هذه الأشياء وتركب فيه الشهوة مرة أخرى؛ فيعود لما كان عليه، وهذه الفطرة التي خبثت سوف تعود إلى المعاصي مرة أخرى، {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ}.

الهموم والأعمال

يقول تعالى: {فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}، إذًا كان هؤلاء الناس يعملون، لكن كانوا يعملون أعمالًا لا يرضاها الله تعالى.

فكما أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم–: "كل الناس يغدو"[٣]، فلا يوجد أحد لا يعمل.

يُروى عن النبي –صلى الله عليه وسلم– حديث كان شيخ الإسلام –ابن تيمية– يكرره دائمًا: "أصدق الأسماء حارث وهمام"، وحسنه بعض أهل العلم وضعفه البعض الآخر، "أصدق الأسماء حارث وهمام"[٤]، أصدق الأسماء أي أن يكون الاسم موافقًا للشخص، فمن الممكن أن يكون اسم شخص ما كريم مثلًا، لكنه ليس كريمًا، أو يكون اسم شخص ما سامح، لكنه ليس مسامحًا.

٣ [عن أبي مالك الأشعري:] الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ اللهِ والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلأُ- ما بيْنَ السَّمواتِ والأرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهانٌ، والصَّبْرُ ضِياءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٢٣ • [صحيح]

٤ أحبُّ الأسماءِ إلى اللَّهِ عبدُ اللَّهِ، وعبدُ الرَّحمنِ وأصدقُ الأسماءِ: حارثٌ وَهمّامٌ، وأقبحُها: حربٌ ومُرَّةُ
ابن تيمية (ت ٧٢٨)، مجموع الفتاوى ٤٣/٧ • صحيح

ف "أصدق الأسماء حارث وهمام"، أي أن الاسمين المطابقين لطبيعة الإنسان وأصدق اسمين هما حارث وهمام، فاسم حارث من الفِعل وهمام من الهَم، **فلا يخلوا الإنسان من هم وحرث –فعل– سواء في الطاعة أو في المعصية.**

فاكتشف هؤلاء أن همومهم وأعمالهم كانت مخالفة لأوامر الملك –سبحانه وتعالى–، فيقولون سنغير البوصلة، ونغير الأعمال كما في قوله: {أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}.

لا يوجد شخص متوقف عن الفِعل والعمل، يقول تعالى: {لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ}[المدثر:٣٧]، الناس جميعهم عندهم هموم ومشاكل وأعمال لكنهم يختلفون فيها.

قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله"[٥]، كل الناس يهاجرون، فيبحثون عن أشياء وطرق يسيرون فيها، "فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه".

يقول تعالى: {أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}، لكن الأمر انتهى، {قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ} –تكلمنا عن هذا المعنى في أول السورة– أي فقدوا فوائدها.

فهذه الأنفس كانت تستطيع الوصول إلى الفردوس وتمتلك القدرة لذلك، لكنهم {قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ} أي ضيعوا هذه النفس وكانوا يفترون أشياء ويشرعون تشريعات ويعبدون آلهة، {وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}.

٥ [عن عمر بن الخطاب:] العَمَلُ بالنِّيَّةِ، وإنَّما لِامْرِئٍ ما نَوى، فَمَن كانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ ورَسولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ ورَسولِهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومَن كانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيا يُصِيبُها، أوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هاجَرَ إلَيْهِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٥٠٧٠ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٥٠٧٠)، ومسلم (١٩٠٧)

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

تقرير القرآن للحقائق

في هذه اللحظة؛ بعد دخول أهل الجنة إلى الجنة، ودخول أهل النار إلى النار، ثم نداءات أهل النار على أهل الجنة، وإعراض أهل الجنة عن إجابتهم، وأنهم لم ينالوا شيئًا من نعيم الجنة، ثم التبكيت {قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} ويعترفون بذلك، فتأتي في هذه اللحظات آية: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ}، قد يظن البعض أن هذه الآية معزولة عن السياق.

هذه الحقيقة –التي في الآية– يقررها القرآن في اللحظة المناسبة، **وهذه من عادات القرآن، أن القرآن يقرر الحقائق بعد تهيئة القلوب والنفوس لاستقبال هذه الحقائق.**

- مثلًا في قوله تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا}[غافر:٥١] سنة وقاعدة، وهي **أن الله –عز وجل– ينصر رسله، والنصرة إما بالموت على الحق فلا يبدلون، وإما بالانتصار بالعدة والعتاد في الدنيا، والنصر الكامل يكون يوم القيامة** {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[غافر:٥١]، لا ينتصر الكل في الحياة الدنيا، طائفة فقط هي التي لا تزال تنتصر، {وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}.

هذه الآية –في سورة غافر– جاءت متأخرة –تقريبًا آية واحد وخمسون–، قيلت هذه الحقيقة في سورة غافر بعد ما حصل جدال طويل بين مؤمن آل فرعون وبين فرعون وملئِه، ثم نجاه الله –عز وجل– من مكرهم، ثم أدخل الله –عز وجل– فرعون وقومه النار.

فيتحاجون –المستكبرون والمستضعفون– في النار، ثم يُعرض المستكبرون عن المستضعفين، ثم يلجؤون جميعًا –المستكبرون والمستضعفون– إلى الملائكة ويدعونهم قائلين: {ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ}[غافر:٤٩]، فيُعرض الملائكة عنهم ويبكتونهم، ثم تنتهي الآيات بصراخهم في النار وأنهم يظلون يصرخون في النار وينادون على الملائكة.

في هذه اللحظة –وأنت تسمع صريخهم في النار– يقول ربنا: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا}؛ فتستقر الحقيقة في القلب.

القرآن يخاطب مشاعر الإنسان لا عقله فقط، القرآنُ يخاطب الإنسانَ ككل، فالإنسان مخلوق من طين ويحتوي على مشاعر.

جاءت هذه الحقيقة – {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ} – في أول الآية، فتعجَّب البعض؛ لأن الغالب دائمًا في القرآن أن قضية الربوبية والخلق تأتي قبل قضية الرسالة.

فيقول تعالى في سورة الأعراف: {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ}، فجاءت الرسالة في البداية ثم جاء الخلق.

وعادة القرآن أن يبدأ بالخلق كما في قوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ}[البقرة:٢١]، ويعد هذا النداء –في سورة البقرة– أول نداء في القرآن كله، ثم التحدي بالقرآن –أنهم لن يأتوا بمثل هذا القرآن– في الآية التي تليها مباشرة في سورة البقرة، فعادة القرآن ذكر الخلق ثم الرسالة، أيضًا في قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[العلق:١] ثم بعد ذلك {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ}[العلق:٥].

قلنا إن سورة الأعراف أشبه بتكملة لسورة الأنعام، وسورة الأنعام تكلمت عن الخلق والأعراف عن الرسالة، فجاءت قضية الرسالة بعدما هُيئت الأنفس والمشاعر لتلقي هذه الحقيقة.

الذي خلق هو الذي يأمر

{إِنَّ} للتأكيد، {رَبَّكُمُ} قيل تعود على: {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} أي أن الذي يأمركم وينهاكم هو خالق كل شيء.

لماذا يخاف الإنسان من طاعة ربه؟ لمَ تخاف؟ لماذا تخاف السير في هذا الطريق؟

فالذي أمرك بعبادته هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهو الذي يُسَير الليل والنهار، وهو الذي يسخر الشمس والقمر والنجوم، فمَّمَ تخاف؟ ولماذا تخاف؟

فالذي أمرك هو الذي خلقك، وهو أهل لأن يأمر؛ لأن الذي خلق هو الذي يأمر، يقول تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}، كيف يأمر من لم يخلق؟

حتى في عادات الناس عندما يقول الأب لابنه شيئًا ما، ثم يأتي رجل غريب يأمر الابن يتعجب الأب.

أتأمر طفلي! أنا من ينفق عليه ويطعمه ويسقيه ويعلمه، فعلى أي أساس تأمره؟ ولماذا يطيعك؟ هو يطيعني أنا، ولله المثل الأعلى.

هذا وهو مجرد أب لم يخلق شيئًا، يقول تعالى: {أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ}[الواقعة:٥٩].

فتخيل أن الله –سبحانه– هو الذي خلق وهو الذي دبر وهو الذي رزق؛ فكيف يُنازع الله –سبحانه وتعالى– في الأمر! لذلك قال ربنا: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}.

يقول تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذا –خلق السماوات والأرض– لا يُنازع فيه –سبحانه وتعالى–، ولا يزال التحدي قائمًا، يقول تعالى: {لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ}[الحج:٧٣].

السنن في الآية: سنة التدرج، سنن كونية، سنن للبشر، سنن التدبير

قلنا إن في قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ} تعود إلى قوله: {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ}، فربكم الذي أمركم هو الذي خلق، يقول تعالى: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}.

قالوا إن الله –عز وجل– خلقهما –السماوات والأرض– في ستة أيام –وهو قادر على أن يخلقهم دفعة واحدة– لأن هذه سُنة التدرج.

يَسن الله –عز وجل– هذه السُنة؛ حتى لا يكون في صدرنا حرج، أن من الحكمة التدرج في الأشياء وأن الأمور لا تأتي دفعة واحدة، وأن الإنسان يصل إلى ما يريد بنوع من التدرج كما في قوله: {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}.

يقول تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ}، **وهو استواء حقيقي كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه** –سبحانه وتعالى–.

يقول تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ}، هنا -في الآية- صور تسيير الكون، يخبرنا ربنا -سبحانه وتعالى- في هذه الآية أن هناك سُننًا للكون وسُننًا للبشر.

الله -عز وجل- اختار للكون التسخيرَ، واختار للبشر الأوامر، الله -سبحانه وتعالى- يفعل ما يشاء، كان من الممكن أن يجعل اللهُ -عز وجل- البشرَ مسخرين كالشمس والقمر؛ فليسوا بأقوى من الشمس والقمر.

وقد قال ربنا أن هذه المخلوقات {مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ}، فكان من الممكن أن يكون الأمر أيضًا هكذا مع البشر -فيُسَخَروا-، لكن أخبرنا -سبحانه وتعالى- أنه اختار للكون التسخير.

وأخبرنا ربنا عن سُنن التدبير كما في قوله: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ}، أي يجعل الليل يغطي على النهار، {يُغْشِي} بمعنى يُغَشّي الليلُ النهارَ، فالله -عز وجل- هو الذي جعل الليل يغطي على النهار.

يقول تعالى: {يَطْلُبُهُ حَثِيثًا}، اختلف العلماء في مسألة مَن الذي يطلب مَن حثيثًا.

فمن الفاعل للفعل {يَطْلُبُهُ}؟ وعلى من تعود الهاء؟

الأغلب -وهو اختيار الطبري- أن الليلَ يطلبُ النهارَ حثيثًا، وقال بعضهم يطلب النهارُ الليلَ حثيثًا.

واختار ابن كثير الجمع بين القولين وهو أنهما -الليل والنهار- يطلبان بعضهما بعضًا، وهذا من التبادل والتنازع.

استنباط سنن الدنيا (تعاقب الحق والباطل) من السنن الكونية (الليل والنهار يطلبان بعضهما بعضًا)

لِمَ تُذكر هذه السُنة الكونية هنا تحديدًا؟

هناك قاعدة مهمة جدًا في القرآن، تحتاج هذه القاعدة إلى شرحٍ باستفاضة، ولكن سأشير إليها سريعًا، أظن أني ذكرتها في نهاية (تفسير سورة فاطر) وفي تفسير المثل في (تفسير سورة الرعد) في قوله تعالى: {أنزل من السماء ماءً}.

وهذه القضية مهمة جدًا.

الله –عز وجل– يذكر في القرآن سُنن الكون: أن الماء ينزل من السماء فيخرج به النبات، وأن الشمس تدور كما في قوله تعالى: {كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى}[الرعد:٢][٦] وقوله: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[الأنبياء:٣٣].

هذه السُنن التي يذكرها لنا ربنا –سبحانه وتعالى– من المخلوقات نستفيد منها؛ لأن لها في المقابل وفي المشابه وفي المناظر سُننًا اجتماعية في حياة الإنسان، بمعنى أن الله –عز وجل– يذكر لنا هذه السنن إما ليوضح لنا بعدها ما هي السُنة المشابهة مِن السُنن الاجتماعية، وإما يتركها لنا لنستنبطها.

وهذا أمر مهم جدًا في القرآن ومن قواعده، فمثلًا: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا}[الرعد:١٧]، في الآية سُنة كونية ليست اجتماعية، ولا يخص البشر أن الماء ينزل من السماء –{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}– وأن تسيل الأودية –كل وادٍ يسيل على حسب القَدْر الذي خلقه عز وجل عليه–، {فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا} من الطبيعي أن يحمل السيل القاذورات والأشياء الهشة التافهة الموجودة في الأرض، {فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا} ثم يزداد هذا الزبد حتى ينقشع ويلقى مجافيًا بسبب استمرارية وقوة السيل.

إذًا قوله تعالى: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا} سُنة كونية مادية تشاهدها.

أيضًا حينما تضع الذهب في فرن في النار فيسقط الزبد الذي على الذهب ويبقى الذهب الأصلي الخالص الصافي، كما في قوله: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ}.

الذي يقرأ مقدمة هذه الآيات لا يفهم مقصدها، فهل المقصد أن يخبرنا ربنا –سبحانه وتعالى– عن أحداث نراها بأعيننا فقط؟ فيقول ربنا: {كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ}، فتعود مرة أخرى لتقرأ المثل.

٦ فاطر:١٣، الزمر:٥

فتفكر هل هذه الأشياء كلها وهذه السُنن الكونية لها مماثلات في الحياة الاجتماعية؟

فتكون الإجابة نعم.

يخبرنا ربنا المقصد في بعض الآيات صراحةً كما في قوله: {الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ}، وفي بعض الأوقات يترك لك مساحة للاستنباط.

بل إذا تفكرت في كل سُنة كونية تراها ستستنبط سنن الدنيا، كتعاقب الليل والنهار فهو كتعاقب الحق والباطل وأن الأيام دُوَل وأنه مهما طال الليل لا بد من طلوع الفجر، كذلك مهما طال وقت الاستضعاف لا بد من مجيء وقت التمكين.

فيخبرنا ربنا –سبحانه وتعالى– أن الليل والنهار يطلبان بعضهما بعضًا في قوله: {يَطْلُبُهُ حَثِيثًا}، **كما أن السير متعاقب بين الحق والباطل وأن الذي يدبر هذه الأمور هو الله –سبحانه وتعالى–.**

رأى النبي –صلى الله عليه وسلم– رؤيا –الحديث في البخاري ومسلم، وهو حديث طويل بعض الشيء– فرأى –صلى الله عليه وسلم– رجلًا طيب الخلقة يطوف حول الكعبة مستندًا على رجل أو رجلين ثم رأى وراءه رجلًا أعورًا سيئ الخلقة –معاذ الله– مستندًا أيضًا على رجل ويطوف خلفه حول الكعبة، فسأل النبي عن ذلك فقيل: الأول هو عيسى بن مريم والثاني هو الدجال.[٧]

إذًا فالجميع يطوفون، ومن الممكن أن ترى في الطواف كأن الدجال يسير خلف عيسى وعيسى يسير خلف الدجال.

٧ [عن عبدالله بن عمر:] ذَكَرَ النبيُّ ﷺ، يَوْمًا بيْنَ ظَهْرَيِ النَّاسِ المَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقالَ: إنَّ اللَّهَ ليسَ بأَعْوَرَ، ألَا إنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طافِيَةٌ. وأَرانِي اللَّيْلَةَ عِنْدَ الكَعْبَةِ في المَنامِ، فَإذا رَجُلٌ آدَمُ، كَأَحْسَنِ ما يُرى مِن أُدْمِ الرِّجالِ تَضْرِبُ لِمَّتُهُ بيْنَ مَنْكِبَيْهِ، رَجِلُ الشَّعَرِ، يَقْطُرُ رَأْسُهُ ماءً، واضِعًا يَدَيْهِ علَى مَنْكِبَيْ رَجُلَيْنِ وهو يَطُوفُ بالبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَن هذا؟ فَقالوا: هذا المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ رَأَيْتُ رَجُلًا وراءَهُ جَعْدًا قَطَطًا أعْوَرَ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأَشْبَهِ مَن رَأَيْتُ بابْنِ قَطَنٍ، واضِعًا يَدَيْهِ علَى مَنْكِبَيْ رَجُلٍ يَطُوفُ بالبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَن هذا؟ قالوا: المَسِيحُ الدَّجّالُ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٤٣٩ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٣٤٣٩)، ومسلم (١٦٩)

وهذا هو تعاقب الحق والباطل، ويظل هذا التعاقب إلى أن ينتهي هذا التعاقب وهذا الطواف وهذا الدوران بقتل عيسى -عليه السلام- للدجال، -أي يقتل عيسى عليه السلام الدجالَ[٨]-، وهذا التعاقب مستمر بين الحق والباطل.

التسيير والتخيير: الأوامر الكونية والأوامر الشرعية

يقول تعالى: {يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ} -هذه المخلوقات العظيمة- {مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ}، وهذا هو الأمر الكوني وهناك أمر شرعي.

ينبغي أن نفرق بين الأوامر، فهناك: أوامر كونية وأخرى شرعية:

- الأوامر الكونية كطلوع الشمس من مشرقها وتسخير المخلوقات،
- والأوامر شرعية وهي التي لا يستطيع الإنسان فيها أن يصادم الأمر الكوني، فيأتيه أمر كوني أن يموت أو يأتيه أمر كوني أن يمرض، **وهذه هي قضية التسيير والتخيير التي يخوض فيها الناس**.

الأمر الكوني لا يُنَازَع، أما الأمر الشرعي أعطاك الله -عز وجل- فرصة للاختيار في الدنيا ثم تحاسب عليه يوم القيامة.

يقول تعالى: {مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}، أي أنه كما أن له الأمر الكوني كذلك أيضًا له الأمر الشرعي، هو الذي يأمر الأوامر الشرعية -سبحانه وتعالى-.

يقول تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} نحن نفرح بذلك؛ فالبركة في أمره -سبحانه وتعالي-، فكما أن الكون مدبر ومنسق ومهيأ بأوامره الكونية كذلك لو أطعنا الله سيكون هذا الكون في قمة التدبير والإحكام.

٨ [عن أبي هريرة:] لا تقومُ السّاعةُ حتّى تنزِلَ الرُّومُ بالأعماقِ أو بدابِقَ فيخرُجَ إليهم جيشٌ مِن أهلِ المدينةِ هم خيارُ أهلِ الأرضِ يومَئذٍ فإذا تصافُّوا قالتِ الرُّومُ: خلُّوا بينَنا وبينَ الَّذينَ سَبَوا منّا نُقاتِلْهم فيقولُ المُسلِمونَ: لا واللهِ لا نُخلّي بينَكم وبينَ إخوانِنا فيُقاتِلونَهم فينهزِمُ ثُلُثٌ لا يتوبُ اللهُ عليهم أبدًا ثمَّ يُقتَلُ ثُلُثُهم وهم أفضَلُ الشُّهداءِ عندَ اللهِ ويفتَتِحُ ثُلُثٌ فيفتَتِحونَ القُسْطُنْطِينيَّةَ فبَيْنما هم يقسِمونَ الغنائمَ قد علَّقوا سيوفَهم بالزَّيتونِ إذ صاح فيهم الشَّيطانُ: إنَّ المسيحَ قد خلَفَكم في أهاليكم فيخرُجونَ وذلك باطلٌ فإذا جاؤوا الشّامَ خرَجَ - يعني الدَّجّالَ - فبَيْنما هم يُعِدُّونَ للقتالِ ويُسوُّونَ الصُّفوفَ إذ أُقيمَتِ الصَّلاةُ فينزِلُ عيسى ابنُ مَريمَ فإذا رآه عدوُّ اللهِ يذوبُ كما يذوبُ المِلْحُ ولو تركَوه لذاب حتّى يهلِكَ ولكنَّه يقتُلُه اللهُ بيدِه فيُريهم دمَه بحربتِه

ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٦٨١٣ • أخرجه في صحيحه

إنما يظهر الفساد بسبب عصياننا لأوامره الشرعية، هذا التسخير الذي تراه في الكون، نحن نفسده بمعاصينا؛ لذلك قال بعدها ربنا: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}، أي –لا تفسدوا فيها– بالمعاصي.

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾

الدعاء هو العبادة

يقول تعالى: {تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، من يقرأ هذه الآية يخرج بقلب مفتقر إلى الملك؛ فجاءت الآية التي تليها مباشرة تؤكد هذا الشعور وتقول للقلب: {ادْعُوا رَبَّكُمْ}.

أول السورة: {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ}، وهنا {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}، **فالمؤمن لا يكتفي فقط بمجرد العبادة، بل يلجأ إلى الله ويدعوه**، يقول تعالى: {ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}.

النتيجة الطبيعية من آية {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ} أن تدعوَ ربنا وأن تتجه إليه.

يقول تعالى: {تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}، قالوا معنى (التضرع): محاولة الطفل الفصيل الصغير من أولاد الناقة – وغيرها من الدواب– أن تصل إلى ضرع الأم؛ لأنها في حاجة إلى ضرع الأم وإلا تموت.

فالتضرع يُمثل مدى احتياج الإنسان إلى ربه وإلا يموت، لذلك التضرع يأتي في الأوقات الصعبة كالوجود في منتصف البحر مع اشتداد الرياح، فيأتي التضرع كما في قوله تعالى: {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا}[الأنعام:٤٣]، ليس الدعاء فقط –بل التضرع–.

يقول تعالى: {تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}، معنى (الخُفية) أي في السر، فقال العلماء: إما أن يكون التضرع هنا عكس خفية، فيكون معنى قوله: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً}

– ادعوا ربكم جهرًا وخفيةً، لكن حتى لا يكون الجهرُ رياءً يكون مصاحبًا له التضرع.

- وقال بعضهم إنَّ اللفظين بمعنى واحد وإن المقصد هو الدعاء في الخفاء فقط وإن التضرع هو الحالة الوجدانية التي يعيشها الإنسان في أثناء هذا الاختفاء عن الناس،

فالمقصد من قوله: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} هو

- الإخلاص -كما اختار الإمام الطبري-
- اختار غيره من المفسرين أن التضرع هو الجهر والخفية هي السر، فأنت تدعو الله في كل الأوقات منفردًا ومع الناس.

يقول تعالى: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}، ما معنى قوله {الْمُعْتَدِينَ}؟

لفظ {الْمُعْتَدِينَ} -اسم فاعل أم اسم مفعول؟ - اسم فاعل: أي هم الذين اعتدوا، في ماذا اعتدوا؟

لم يَذكُر القرآن، وهذا من أسباب اختلاف المفسرين -أن يُحذف جزء من الجملة كالمفعول مثلًا-، يؤدي هذا إلى اتساع معنى الآية، ومن ثم يؤدي إلى الاختلاف الذي يؤدي إلى التنوع.

- قال بعضهم إن هذا اللفظ متعلق بشطر الآية الأول {ادْعُوا رَبَّكُمْ} إنه لا يحب المعتدين في الدعاء، بمعنى أن هذا السلاح الذي أعطاه الله -عز وجل- لأهل الإيمان لا ينبغي أن يُتعدى فيه، فله قواعد وله آداب وله سنن.
قال بعضهم أيضًا إن من التعدي في الدعاء سؤال منازل الأنبياء، وسنذكر ما علاقة هذا القول بالآية التي تليها - {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} -.
- قال بعضهم إن {الْمُعْتَدِينَ} مرتبطة بقوله {مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ}، أي أن الله -عز وجل- لا يحب المعتدين عن أوامره، فكما أن الله -عز وجل- وضع قواعد وسننًا للشمس والقمر والنجوم وهذه المخلوقات لا تتعدى تلك القواعد فلا تتعدى أنت أيضًا أوامره -سبحانه وتعالى-.
هكذا لا يكون المعنى مرتبطًا بشطر الآية الأول بل مرتبط بالآية التي قبلها، هل وضح المعنى؟
- وقال بعضهم إن قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} معناه: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} إنه لا يحب الذين لا يدعونه، ثم حُذفت كلمة (لا يدعونه) ووُضع مكانها {الْمُعْتَدِينَ}؛ لأن الذي لا يدعو الله معتدٍ، فكيف يعيش في الدنيا وهو لا يدعو الله؟
يغضب الله -عز وجل- إذا لم يُسأل -سبحانه وتعالى-، لماذا يغضب الله -عز وجل- من عبدٍ لا يسأله؟

لأن الإنسان في حقيقته مفتقر إلى الله، فحينما يُعرِض الإنسان عن سؤال ربه فهو متكبر،أي أنه محتاج وفقير ثم لا يسأل!

إذًا هو متكبر، لذلك "الدعاءِ هو العبادةَ[٩]" كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإظهار الافتقار للملك -سبحانه وتعالى-.

فقيل: {الْمُعْتَدِينَ} أي الذين لا يسألونه، فالذين يدعون ربهم تضرعًا وخفية هؤلاء يحبهم الله، أما الذين لا يدعونه تضرعًا وخفية لا يحبهم الله.

- وقال بعضهم إن المعتدين -في الدعاء- هم الذين يجعلون مع الله شركاء في الدعاء، فيكون هناك وساطة في الدعاء، أي يدعون غيره.

هناك مشاعر في القلب لا ينبغي أن تكون إلا لله، هناك مشاعر في القلب -كالافتقار والتضرع والتألُّه- لا ينبغي أن تكون إلا لله، فمن وضعها لغيره فقد اعتدى، فيكون -هذا الإنسان- ظالمًا، هناك مشاعر من الخوف والرهبة والرجاء تكون لله وحده.

لذلك الآية التي بعدها: {وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا} هذا الخوف والطمع لا يكون في الحالة القُصوى والمثلى إلا له -سبحانه وتعالى-، لا ينبغي أن تكون إلا له.

فمن صرف هذه المشاعر لغيره فقد اعتدى، {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}.

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

النهي عن الإفساد بعد الإصلاح

يقول تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا}، يصلح أن يكون أحد معان تلك الآية قاعدةً عامة، أي أنه من الممكن أن نستعمل الآية بوصفها قاعدة عامة، فقوله: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} **نهي عن إفساد كل شيء أُصلِحَ وبُذِل فيه مجهود.**

٩ [عن النعمان بن بشير:] الدُّعاءُ هُو العبادةُ ثمَّ قرأَ وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٣٣٧٢ • حسن صحيح • أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجة (٣٨٢٨)

فمن الأخطاء عند انتقاد عمل ما أن يؤدي هذا النقد إلى هدمه، وهذا من الإفساد بعد الإصلاح، أنت تريد إصلاحًا؛ فلا بد أن توازن.

فتفكر، هل سيؤدي هذا النقد إلى الكمال؟ وهذا مطلوب، أما إذا كان النقد سيتحول إلى النقض – بالضاد– فينقض ويهدم فهذا غير مطلوب؛ فالأمور تحتاج إلى موازنات.

فلا ينبغي أبدًا أن يكون في أمر ما إصلاح، ثم نأتي وننكر عليه بالفساد –نفسده–، فهذا أمر يبغضه الله –عز وجل–، كذلك إفساد الفِطَر وإفساد الناس بعد أن عادوا إلى ربهم.

يقول تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}، أولًا ما هو معنى الإصلاح؛ لكي نعرف ما هو الإفساد.

قيل إن الله –عز وجل– أصلح الأرض، ثم أفسد الناس فيها، بماذا أصلح اللهُ الأرض؟ اختلف العلماء في ذلك.

- اختار الإمام الطبري أن إصلاح الأرض يكون بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فيكون الفساد بمعصية الرسل وبالإعراض عن الكتب، فكيف تفسدون في أرضٍ أنزل الله فيها الرسل والكتب!
- وقال بعضهم إن الله أصلح الأرض بالسنن الكونية كتسخير وجود الماء والشمس والقمر والرزق والجبال، وهذا الإصلاح قد يفسد بسبب المعاصي كما في قوله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}[الروم:٤١].

أظن أن هذا المعنى مروي عن مجاهد، وهو أن المعاصي تؤدي إلى الفساد في الأرض، فيختل نظام الكون وتفسد الأرض؛ بسبب المعاصي.

يقول تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}، إذًا فالفساد في كلا الحالتين يكون بالمعاصي.

لكن إذا قلنا إن الإصلاح –مثلما اختار الإمام الطبري– بإرسال الرسل وبإنزال الكتب، إذًا أنت بوصفك مصلح –تريد أن تسمي نفسك مصلحًا في الأرض– تقوم على دعوة الرسل ونشر الكتب ونشر القرآن، وهذا إن أردت أن تكون مصلحًا في الأرض.

من معاني الإصلاح إقامة دعوة الرسل ونشر كتاب الله –سبحانه وتعالى– بين الناس.

احتياج السائر إلى الله للهداية والمغفرة

يقول تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}، **حتى نطبق هذا المعنى –ألا نفسد في الأرض– وحتى تسير على الطريق المستقيم تظل بين خوفٍ ورجاء** كما في قوله: {وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا}.

فمن يريد تطبيق مراد الله يشعر بالخوف دائمًا؛ لذلك في أثناء بناء سيدنا إبراهيم –عليه السلام– للكعبة مع إسماعيل –عليه السلام– كان يقول: {أَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا}[البقرة:١٢٨].

أي أنك تحتاج البصيرة ثم تطبق فتخطأ فتريد المغفرة، **فأنت في حاجة إلى شيئين في الطريق إلى الله –عز وجل–، وهما أن يعرفك –سبحانه وتعالى– الطريق ثم يغفر لك الزَلل في أثناء الطريق**، كما في قوله تعالى: {أَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا}.

في سورة الأعراف أصلح الله –عز وجل– الأرض بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فتريد أن تطبق، حينها –وأنت تطبق– تكون على وجل وتسأل الله –عز وجل– السداد وأن تستمر على إصلاح الأرض، {وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا}.

قال بعضهم إن قوله: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} يُقصَد به هيئة الدعاء، أما قوله: {وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا} يُقصد به مشاعر الدعاء، فيكون الدعاء بين هيئة الجهر والسر ومشاعر الخوف والطمع، {وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا}.

الذي يسير على أمر الله كما سارت النجوم والشمس والقمر على أمره، لكنه يسير طوعًا لا كرهًا، والذي يدعو الله –عز وجل– تضرعًا وخفية والذي لا يعتدي في الدعاء والذي لا يفسد في الأرض ويساعد على الإصلاح والذي يدعو الله خوفًا وطمعًا هؤلاء هم المحسنون، ورحمة الله قريبة منهم كما في قوله تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ}، أي الذين فعلوا هذه الأفعال السابقة.

إذًا من يريد أن يتصف بالإحسان وينال رحمة الله –عز وجل– يطبق هذه الأشياء.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

إرسال الرسل وإرسال الرياح

يقول تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ}، قيل إن قوله {وَهُوَ الَّذِي...} معطوفٌ على قوله: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ...} -الآية الرابعة وخمسون-.

فيكون قوله: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ...} {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ...}.

قلنا إن من عادات القرآن عدم الاكتفاء بذكر السنة الكونية، لكن لابد أن يكون لها إسقاط في حياتنا الاجتماعية.

- هناك كتابٌ قيّم كُتِبَ في هذا المبحث اسمه "إعجاز النظم القرآني في اقتران السنن الكونية بالسنن الاجتماعية" للدكتور توفيق علي، هو كُتيب صغير -لكنه قيم-.
- هناك متقدمين بالطبع كابن القيّم الذي أفاض في ذلك، ومن المعاصرين الشيخ رفاعي سرور الذي تكلم في كتاب "قدر الدعوة" عن هذا المعنى.
- حاول دكتور توفيق علي أن يصيغ هذا الأمر في كتيبه "إعجاز النظم القرآني في اقتران السنن الكونية بالسنن الاجتماعية في القرآن" وغالب هذا الكتيب كلام رائع للمفسرين، وذلك تجميع طيب، واجتهد أيضًا في استنباطات جيدة في كيف أن القرآن يجمع بين سنة كونية ثم تأتي مباشرة بعدها سنة اجتماعية.

فمثلًا ينصر الله -عز وجل- أهل الحق بعد تعاقب الليل والنهار، فكأن هناك إشارة إلى تلك السنة، كما ذكرنا في تفسير بعض سور جزء عمّ، في سورة والليل والشمس والضحى، فالأقسام بهذه المشاهد الكونية -في تلك السور- فيها إشارة إلى أن الدين سيظهر وأن النصر سيأتي بعد طول الليل.

يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذي يُرسِلُ الرِّياحَ بُشرًا بَينَ يَدَي رَحمَتِهِ حَتّى إِذا أَقَلَّت سَحابًا ثِقالًا سُقناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلنا بِهِ الماءَ فَأَخرَجنا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ}، في الآية سنة كونية، ومن يقرأ الآية حتى هنا يعتقد أن المقصد هو أن الله يقص علينا ما يحدث من نزول الماء وقصة خروج الثمرة.

تأتي قصة خروج الثمرة بداية من الرياح التي يدبرها الله –عز وجل– ويسيرها بطريقة معينة، وهذه الرياح تنتشر في أماكن بطريقة معينة فتسوق السحاب، وهذا السحاب يصبح ثقالًا محملًا بالماء، وهذا السحاب المحمل بالماء لا يسير بطريقة عشوائية، لكن يسوقه الله –عز وجل– لأماكن محددة في أوقات معينة، ثم يؤمر السحاب في هذه الأماكن بإنزال الماء، {سُقناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ}، فينزل الماء –بتقدير من الله– على أماكن معينة ميتة، ثم يخرج الله –عز وجل– الثمرات من هذه الأماكن.

وهذه سنة كونية، وهذا ما يحدث أيضًا في الدعوة إلى الله، وإن كان الله –عز وجل– لم يذكرها هنا، بل ذكر أن السنة المقابلة لها هي إحياء الموتى كما في قوله تعالى: {كَذلِكَ نُخرِجُ الموتى لَعَلَّكُم تَذَكَّرونَ}.

أي كما يُنزل الله –عز وجل– الماء من السماء فهو –سبحانه وتعالى– قادر على إحياء الأرض الميتة بالماء من السماء فالله –عز وجل– قادر أيضًا على أنباتكم مرة أخرى بعد أن تموتوا، فالذي أخرج النبات من الأرض هو قادر على أن ينبتكم مرة أخرى، {كَذلِكَ نُخرِجُ الموتى لَعَلَّكُم تَذَكَّرونَ}.

فالآية تصلح لدليل عملي واقعي مرئي على قدرة الله على إحياء الموتى، وتصلح أيضًا على قضية بعثة الرسل.

قلنا إن السنن الاجتماعية إما ينص عليها وإما تستنبط، هنا في الآيات يتحقق الأمرين –النص الصريح والاستنباط–، فهناك إشارة إلى السنة في الآية التي بعدها: {وَالبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخرُجُ نَباتُهُ بِإِذنِ رَبِّهِ} ثم تليها الآية التي تقر تلك السنة: {لَقَد أَرسَلنا نوحًا}، أي كما أرسل الله –عز وجل– الرياح أرسل الرسل.

ذُكِرَ التعاقب بين إرسال الرسل وإرسال الرياح في سورة فاطر وسورة الروم وفي آخر سورة النحل.

تجد في هذه المواضع إرسال الرسل ثم إرسال الرياح ثم إرسال الرسل أو إرسال الرسل ثم إرسال الرياح، أي **كما أن الله –عز وجل– يرسل الرياح بشرًا فإنه يرسل الرسل كذلك بشرًا.**

ينطق قوله تعالى في قراءة حفص: {بُشْرًا}، لكنه في قراءة أخرى: {نُشُرًا} وفي قراءة أخرى: {نُشْرًا}، أي أنها إما بالنون وإما بالباء.

قالوا إن من معاني (النشر) الإحياء أو اتجاهات متعددة طيبة، ومن معاني (البشر) البشريات، فما نستنبطه من مجموعة القراءات: أن الريح تأتي من اتجاهات مختلفة تأتي لغرض إحياء الموتى وتأتي طيبة، كما أنها تأتي بالبشرى.

ومعنى قوله تعالى: {بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} أي بين يدي نزول المطر.

فكذلك الرسل، يأتون من اتجاهات متعددة ويصرفون الآيات ويدخلون القلوب من مداخل متعددة ويبشرون الناس برحمة الله -عز وجل- إن هم أطاعوه.

في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ} **قاعدة مهمة وهي أن الله -عز وجل- كما يسوق للناس الأرزاق يسوق لهم الهداية، وكما أن الكون مدبر بكل ما فيه من حركة الشمس والقمر والرياح كذلك يدبر الله -عز وجل- حركة الدعوة**، فيقدر خروج نبي في هذا المكان وخروج داعية في هذا المكان وخروج طالب علم في هذا المكان، ثم يتحدون وتسير الدعوة إلى مكان معين {بَلَدٍ مَّيِّتٍ}.

فالله -عز وجل- يدبر لهذا الدين ويغرس لهذا الدين -سبحانه وتعالى-، وينصر هذا الدين ولو بـ "الرجل الفاجر"[١٠] -كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم-.

حينما يسمع المؤمن هذه الحقائق لا يتكاسل، بل يعمل مطمئنًا، فإذا جلس في الغار قال: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠]، لكنه يعمل.

١٠ [عن أبي هريرة:] شَهِدْنا مع رَسولِ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ، فقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ مِمَّنْ معهُ يَدَّعِي الإسْلامَ: هذا مِن أهْلِ النّارِ فَلَمّا حَضَرَ القِتالُ قاتَلَ الرَّجُلُ مِن أشَدِّ القِتالِ، وكَثُرَتْ به الجِراحُ فأثْبَتَتْهُ، فَجاءَ رَجُلٌ مِن أصْحابِ النبيِّ ﷺ، فقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، أرَأيْتَ الرَّجُلَ الذي تَحَدَّثْتَ أنَّه مِن أهْلِ النّارِ، قدْ قاتَلَ في سَبيلِ اللَّهِ مِن أشَدِّ القِتالِ، فَكَثُرَتْ به الجِراحُ، فقالَ النبيُّ ﷺ: أما إنَّه مِن أهْلِ النّارِ فَكادَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ يَرْتابُ، فَبيْنَما هو على ذلكَ إذْ وجَدَ الرَّجُلُ ألَمَ الجِراحِ، فأهْوى بيَدِهِ إلى كِنانَتِهِ فانْتَزَعَ مِنْها سَهْمًا فانْتَحَرَ بها، فاشْتَدَّ رِجالٌ مِنَ المُسْلِمِينَ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ فقالوا: يا رَسولَ اللَّهِ صَدَّقَ اللَّهُ حَدِيثَكَ، قدِ انْتَحَرَ فُلانٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: يا بلالُ، قُمْ فأذِّنْ: لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلّا مُؤْمِنٌ، وإنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بالرَّجُلِ الفاجِرِ
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٦٠٦ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٦٦٠٦)، ومسلم (١١١)

يقول تعالى: {حَتَّى إِذَا}، تستمر الرياح بسوق السحاب.

متى يتوقف السحاب في مكان معين ثم تمطر؟

تخيل معي أن الرياح تسوق السحاب فيجري، يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذي يُرسِلُ الرِّياحَ بُشرًا بَينَ يَدَي رَحمَتِهِ}، وتستمر الرياح في سوق السحاب حتى يتوقف السحاب في مكان معين.

متى تتوقف السحابة في مكان معين؟

تتوقف في حالتين، الحالة الأولى عندما تكون ثقيلة بالماء كما في قوله تعالى: {حَتّى إِذا أَقَلَّت سَحابًا ثِقالًا} -سأشرح المفردات الآن-، أي حتى إذا أقلت الرياحُ سحابًا ثِقالًا بالماء {سُقناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ}، الحالة الثانية أن تتوقف السحابة أمام بلد ميت.

قوله: {أَقَلَّت} أي حملت، معنى أن تُقِلَ شيئًا أي أن تحمله، اختلف اللغويون في علاقة لفظ {أَقَلَّت} بمعناه (حمله).

قال الزمخشري إن الذي يحمل شيئًا ما يراه في عينه قليلًا؛ لأنه استطاع أن يحمله، أما إن لم يستطع حمل شيء ما يراه كثيرًا، فمعنى كلمة (أقله): يراه قليلًا؛ لأنه استطاع أن يحمله.

أي شيء تستطيع حمله تراه قليلًا، وهذا هو الأصل اللغوي للكلمة.

يقول تعالى: {حَتّى إِذا أَقَلَّت} أي حمَلَت الرياحُ السحابَ، تستمر الرياح بحمل السحاب حتى يصل السحاب إلى مرحلة معينة سماها الله -عز وجل- {سَحابًا ثِقالًا}، المعنى هنا مهم جدًا.

السحاب لم ينزل الماء -ولم يسقه الله إلى الأرض الميتة- إلا حينما كان السحاب ثقالًا كما في قوله: {حَتّى إِذا أَقَلَّت سَحابًا ثِقالًا سُقناهُ}، فحدث السوق للسحاب حينما كان السحاب ثقالًا.

لم يقل ربنا (حتى إذا أقلت سحابًا سقناه)، بل قال: {حَتَّى إِذا أَقَلَّت سَحابًا ثِقالًا سُقناهُ}، فلا يساق للبلد الميت أية سحاب.

كذلك إذا أردت الاستعمال –من الله لك– عليك بالثقال، ينشغل الكثير منا بقضية الاستعمال، وهذا أمر طيب، لكن هناك قضية مهمة قبل الاستعمال، وهي أن تكون ثقالًا، أي تكون مليء، **والثقال يأتي بالقول الثقيل** كما في قوله تعالى: {إِنّا سَنُلقي عَلَيكَ قَولًا ثَقيلًا}[المزمل:٥].

هذه السحابة حينما أصبحت ثقيلة بالماء الذي ينفع الأرض ساقها الله لبلد ميت واستعملها لإحياء البلد الميت، أما حينما ننشغل بالاستعمال ولا نكون ثقالاً ماذا نريد إذًا!

أن تتنزه في السماء كالسحابة الفارغة ولا تفيد الناس، فهي تقف فوق الأرض فقط وتغطيها ثم لا تنزل شيئًا.

هناك من الناس من يغطي على أناس آخرون ويقف كأنه موجهًا للناس ثم لا يفيدهم شيئًا، هو فقط يمنع عنهم أشعة الشمس ولا يفيدهم بالماء.

يقول تعالى: {حَتَّى إِذا أَقَلَّت سَحابًا ثِقالًا}، **كن ثقالًا؛ حتى يسوقك الله، فالاستعمال منه –سبحانه وتعالى–.**

يرتب الله للداعية {سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ}، حين يعطيك الله –عز وجل– ما يحتاجه الناس فهو بذلك يسوقك لهم، فالبلد الميت احتاجت الماء الذي في السحاب فساق الله –عز وجل– السحاب الثقال لبلدٍ ميت.

يقول تعالى: {سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ}، وهذا كله –عملية السوق– من عند الله –عز وجل–، فهو تعالى الذي {يُرْسِلُ}، ويُقِل: {أَقَلَّت سَحابًا}، ويسوق: {سُقْنَاهُ}، ويُنزِل: {أَنزَلْنَا}، ويُخرِج: {أَخْرَجْنَا}.

إذًا فالعملية كلها بفضل الله؛ حتى لا تنسب لنفسك الفضل، فالله هو من يعلمك ويسوقك ويستخرج منك الدين ويجعل الكلام يؤثر في الناس، فكل شيء من عنده –سبحانه وتعالى–.

اختلاف القلوب في استجابتها للآيات كاختلاف الأرض في استجابتها للماء

يقول تعالى: {سُقناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلنا بِهِ الماءَ}، اختلف العلماء في الهاء في قوله: {بِهِ}،

- هل المقصود (بالسحاب) فتكون الباء باء الآلة،
- أو {بِهِ} المقصود (بالمكان) فتكون الباء باء الملابسة، فيكون قوله تعالى: {فَأَنزَلنا} بهذا المكان -أي بهذا البلد الميت- الماء.

الخلاف نفسه في قوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَا بِهِ} هل أخرجنا (بالماء) أو أخرجنا (بالمكان) نفسه.

يقول تعالى: {فَأَخرَجنا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ}، كذلك يفعل القرآن والدليل على أن المعنى الذي نقوله صحيح الآيةُ التي تليها.

يقول تعالى: {كَذلِكَ نُخرِجُ الموتى}، المعنى الأول المستنبط من هذه السنة هي قدرة الله -عز وجل- على إحياء الموتى {لَعَلَّكُم تَذَكَّرونَ}.

هناك معنى آخر من قضية نزول الماء على الأرض، فكما قلنا إن من **المعاني المهمة في سورة الأعراف اختلاف الناس في التعامل مع الآيات التي جاء بها الرسل، فكذلك اختلاف الأرض وقابلية الأرض للتعامل مع الماء الذي أنزله الله.**

وهناك حديث مشهور يفصل هذه الآية، وهو قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "مثل ما بعثني الله -عز وجل- به من الحق والهدى -أو من الخير والهدى- كمثل غيث أصاب أرضًا..."[١١].

هذا الحديث طويل، قسم الأرض إلى ثلاثة أنواع، وشرحته بالتفصيل في درس (إنه القرآن) وأيضًا درس (تفاعل القلب مع الوحي).

١١ [عن أبي موسى الأشعري:] إنَّ مَثَلَ ما بَعَثَنِيَ اللَّهُ به عزَّ وجلَّ مِنَ الهُدى والعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أصابَ أرْضًا، فكانَتْ مِنْها طائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الماءَ فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَ مِنْها أجادِبُ أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْها وسَقَوْا ورَعَوْا، وأصابَ طائِفَةً مِنْها أُخْرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً، ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ، ونَفَعَهُ بما بَعَثَنِيَ اللَّهُ به، فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ به.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٢٨٢ • [صحيح]

قُسِّمَت الأرض إلى ثلاثة أقسام:

- الأرض القيعان.
- الأرض الأجادب التي أمسكت الماء.
- الأرض الطيبة التي كان منها أرضًا طيبة فقبلت الماء وأنبتت، أي قبلت وتفاعلت مع الماء وأخرجت الثمار.

فهنا يخبرنا ربنا -سبحانه وتعالى- أن الأراضي تختلف نتائجها وفقًا لطبيعتها، فكذلك القلوب.

فالماء ثابت وطيب، وهو الوحي؛ لذلك فرق ربنا -سبحانه وتعالى- في الآيات بين الأراضي، فهناك أرض طيبة وهناك أرض خبيثة.

وإن قال بعض أهل العلم إن مشكلة الذي خبُث أنه لم يعد يتلقى ماءً نقيًا بل أصبح يتلقى ماءً مالحًا.

وأشار الإمام الطبري إلى هذا الكلام، فقال إن الذي خبث خبثت تربته في أرض سبخة طينية لا تمسك الماء وإنه يتلقى ماءً مالحًا.

الماء المالح هو ماء، لكن فيه زيادات، فكذلك الأفكار التي يكون فيها بعض الوحي لكن مشوبة بآراء وأفكار ضالة، فيكون هذا المعنى المتداخل سبب عدم إنتاج الثمار.

هل وضح المعنى؟

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا}، ركزوا معي في المقارنة بين الأمرين.

سنضع خط مقارنة على اليمين، في قوله تعالى: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ} ثلاث مقاطع يقابلها ثلاث مقاطع في قوله: {وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا}.

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ	وَالَّذِي خَبُثَ
يَخْرُجُ نَبَاتُهُ	لَا يَخْرُجُ
بِإِذْنِ رَبِّهِ	إِلَّا نَكِدًا

فساد الفطرة حتى يصبح الخبث سجية

سنقارن بينهم، قوله: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ} يقابله قوله: {وَالَّذِي خَبُثَ}، ما الفرق بين قوله: {الْبَلَدُ الطَّيِّبُ} وبين قوله: {الَّذِي خَبُثَ}؟ لماذا لم يقل ربنا -عز وجل- (البلد الخبيث)؟

لأن الفطرة السليمة هي الأصل، لكن قوله: {خَبُثَ} أي تحول إلى خبيث، يُقصَد بصيغة فَعُلَ أي تحول إلى شيء ما حتى يصبح ذلك الشيء سجية له.

فمثلًا كلمة (فَقُهَ) -على صيغة فَعُلَ- أي صار فقيهًا، لكن إذا قلت: "فَقِه فلان" يحتاج هذ الفعل إلى مفعول به، فنقول: فَقِه فلان المسألة، أي فهمها بصورة جيدة.

فالفعل (فَقِهَ) يحتاج إلى مفعول، فتقول: فَقِه هذه المسألة -أي فهمها جيدًا-، لكن الفعل (فَقُهَ) لا يحتاج إلى مفعول -فهو فعل لازم-، ومعناه أنه أصبح فقيهًا وصارت هذه سجيته.

هذه مسألة لغوية -سنكملها-، الفعل (فَعُلَ) تأخذ (فعيل)، فتكون الصيغة من الفعل (فَقُه) على وزن فعيل: (فقيهًا)، فتكون الصيغة من الفعل (خَبُث) (خبيثًا).

قيل إن صيغة فعيل من الصيغ الملازمة مثل: قصير وطويل.

أي أن الشخص لا يكون قصيرًا ويصبح طويلًا فجأة، ولا يكون طويلًا ثم تقصر قامته فجأة، فتلك صيغ ملازمة.

فقوله: {وَالَّذِي خَبُثَ} **أي أن فطرته كانت سليمة -أرضًا طيبةً- ثم أفسد فطرته لدرجة أنه لم يعد يستطيع الرجوع، فأصبح الخبث سجية له**، كقول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: "ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا"[١٢] -معاذ الله-. حين شرحها الشيخ الشنقيطي قال: "لا يستطيع أن يتكلم بالصدق"، فالكذب أصبح سجيته، حتى في الأمور التي لا تستحق الكذب يكذب فيها، فهو لا يستطيع أن يتكلم بالصدق -معاذ الله-.

فقوله: {وَالَّذِي خَبُثَ} أي أصبح الخبث سجية له.

- فهناك بلد -البلد الطيب- حافظت على الفطرة وقلوب حافظت على الفطرة.
- وهناك قلوب وفِطَر كما في قوله تعالى: {خَسِرُواْ أَنفُسَهُم} -المعنى الذي تتكرر معنا في السورة-، فخَسِر هذه الطيبة وأفسد الفطرة النقية.

كان هذا تفسير قوله {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ}، والقول المقابل له: {وَالَّذِي خَبُثَ}.

١٢ [عن عبدالله بن مسعود:] عَلَيْكُم بالصِّدْقِ، فإنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إلى الجَنَّةِ، وما يَزالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدْقَ حتّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وإيّاكُمْ والكَذِبَ، فإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلى النّارِ، وما يَزالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ويَتَحَرَّى الكَذِبَ حتّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذّابًا. وبهذا الإسنادَلَمْ يَذْكُرْ في حَدِيثِ عِيسى: ويَتَحَرّى الصِّدْقَ، ويَتَحَرّى الكَذِبَ. وفي حَدِيثِ ابْنِ مُسْهِرٍ: حتّى يَكْتُبَهُ اللَّهُ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٦٠٧ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

ماذا يخرج المؤمن حين يأذن الله له!

يقول تعالى: {يَخْرُجُ نَبَاتُهُ}، ويقابلها {لَا يَخْرُجُ}.

قال العلماء إن قوله: {يَخْرُجُ نَبَاتُهُ} يدل على السلاسة والسهولة، **وأن الإنسان المؤمن عندما يأتيه الأمر ينفذه بكل سلاسة وسهولة ويسر**، أما الآخر - {الَّذِي خَبُثَ} - فيكون عسرًا، وهذا من معاني قوله: {لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا}.

قوله: {بِإِذْنِ رَبِّهِ} المقابل له: {إِلَّا نَكِدًا}، سنفسر معنى {نَكِدًا} أولًا؛ لنفهم معنى قوله: {بِإِذْنِ رَبِّهِ}.

قالوا النكد هو العسر والشؤم والقلة، أيضًا هي الناقة التي لا تعطي لبنًا مهما أطعمتها، وعكسها الشكر.

النكِد هو عطاء نذر قليل مع شدة وعسر، فتكلم شخصًا ثلاث سنوات عن الدين مثلًا، وفي النهاية يستجيب بصعوبة بالغة ويقوم ببعض الأعمال القليلة جدًا، كما في قوله تعالى: {أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا} [العنكبوت: ١٤] للدلالة على العسر.

نستعمل كلمة (نكد) في مصر -على سبيل المثال- أن تنفق على زوجتك مثلًا، وتقوم بالكثير من الأعمال الجيدة لِقاء يوم جيد، فتجد نصف ساعة فقط دون مشاكل، فتقول: هذه الحياة نكد.

فالمقصود بالنكد هو القلة والنذر القليل.

قال بعضهم إن قوله: {لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا} له معنى من اثنين: لا يخرج إلا القليل جدًا.

وقال آخرون إن قوله: {لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا} استثناء منقطع، أي لا يخرج أصلًا، فهو لا يخرج النبات لكن يخرج أمرًا فاسدًا -نباتًا ضارًا-.

فالمقصود من قوله تعالى: {يَخْرُجُ نَبَاتُهُ} هو النبات النافع؛ أما من معاني قوله: {لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا} أنه يخرج نباتًا لا نفع فيه، بل يكون ضارًا، ورُوي هذا -أنه يخرج نبات لا نفع فيه- عن بعض السلف.

إذا اخترنا المقصد أن الشخص يقوم بأعمال قليلة يسيرة بعد طول تعب، كشخص تنزل عليه سيول من القرآن -ماء كثير- ثم لا يقوم إلا ببعض الأعمال اليسيرة للغاية، بل لا يكاد يقوم بشيء!

إذا كان الخبيث يخرج نَكِدًا فما المقدار الذي يخرجه المؤمن؟

لماذا لم يذكر الله أن (البلد الطيب يخرج نباته كثيرًا سهلًا يسيرًا)؟

قالوا إنه أُكتفي بوصف {بِإِذْنِ رَبِّهِ}، هذه كفاية.

فتخيل حين يأذن الله للمؤمن ماذا سيخرج منه!

فقالوا إن هذه الكلمة تغني عن كثير من الكلام كأنه **سهل وطيب ويسير ومبارك ونافع.**

تستطيع أن تضيف أي أوصاف طيبة هنا -في الآية-؛ بسبب قوله: {بِإِذْنِ رَبِّهِ}.

كان هذا اختيار الزمخشري، وتعليق الإمام الطيبي في (الحاشية)، أن قوله: {بِإِذْنِ رَبِّهِ} أمام قوله: {نَكِدًا} وأن القولين متضادين -مقابلين لبعضهما-؛ فهذا {الَّذِي خَبُثَ} لم يأذن الله -عز وجل- له أن يخرج شيئًا، وهذا {الْبَلَدُ الطَّيِّبُ} أذن الله -عز وجل- له بكل خير.

أيضًا قوله: **{بِإِذْنِ رَبِّهِ} يفيد التواضع؛ فإن ما تقوم به من طاعات هو بإذن الملك -سبحانه وتعالى-، كما ذكرنا أن الأفعال كلها في الآيات السابقة منسوبة إلى الله.**

روي عن كثير من السلف أن قوله: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ} مثلٌ ضربه الله -عز وجل- للقلوب، أو مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر في اختلافهم، فهما يختلفان في الاستجابة للماء -الوحي-، منهما من يستجيب ويخرج الثمرات ومنهما من لا ينبت شيئًا.

يقول الله تعالى: {وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ} -أي ننوعها- {لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ}.

ذكرنا (الشكر) من قبل، قلنا إن الدابة الشكراء أو الأرض الشكور هي التي تأخذ القليل من الطعام وتعطي الكثير أو تأخذ القليل من البذور والماء، **فالشاكر هو الذي يعطي الطاعات بأقل الإشارات**.

هذه الآية هي آخر الآيات قبل الشروع في قصص الأنبياء، وكأن هذه الآية هي ختام للمقدمة، فمن لم تنفعه هذه المقدمة هو كالأرض الخبيثة.

وتتكون هذه المقدمة الطويلة من:

- قصة آدم -عليه السلام- مع الشيطان.
- وأوامر الله -عز وجل- للبشر.
- ونداءات أهل النار وأهل الجنة وأصحاب الأعراف.

والذي لم تنفعه ولم تؤثر فيه هذه الآيات هو كالأرض الخبيثة.

ثم أرانا الله -عز وجل- في الآيات القادمة -التي تلت تلك المقدمة- نماذج عملية يشرح الآيات السابقة.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

كما قلنا إن الآيات السابقة مقدمة تليها نماذج عملية للأرض الطيبة والأرض الخبيثة، فنرى كيف تختلف استجابات الناس، فجاء قوله -سبحانه وتعالى-: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ} للدلالة على ذلك.

بدأت قصص الأنبياء من هنا من هذه الآيات، وتميّزت سورة الأعراف أنها أتت بقصص الأنبياء وفقًا للترتيب الزمني، لا يشترط القرآن هذا -الترتيب الزمني- في كثير من السور، لكن هذه الآيات جاءت -كما قيل في كتاب الظلال- كأنها ترسم لنا هذا الموكب الإيماني، بدايةً من آدم -عليه السلام-، استمرارًا في التنازل الزمني لقصص القرآن؛ حتى يستحضر الإنسان هذا المشهد العظيم.

أيضًا جاء هذا الموكب الإيماني بعد آيات تسخير النجوم والشمس والقمر؛ حتى **إذا وجد الإنسان نفسه في قلة مع أهل الإيمان يستحضر أنه متوافق مع أغلب الكون**، ويعلم أن هذه الكثرة الفاسدة التي يراها بعينه ما هم إلا شرذمة، فَهُم القلة، الإنسان هو الذي يتوافق مع المخلوقات كلها بسيره على منهج الملك -سبحانه وتعالى-، فالغالب أن من يؤمنون يكونون قلة كما في قوله تعالى: {وَمَآ آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ} [هود: ٤٠]، وهذه سنة من لدن سيدنا نوح -عليه السلام-.

الفصل بين قصة سيدنا آدم -عليه السلام- وبين قصص الرسل ثم الفصل بين قصص الرسل وقصة سيدنا موسى -عليه السلام- له حكم.

فالحكمة من قصة سيدنا آدم -عليه السلام- لم تكن أنه رسول أعرض عنه قومه، بل الحكمة أنها كانت المعركة الأولى -بين الإنسان والشيطان-؛ حتى ندخل إلى الحياة ونتعامل معها ونحن نستحضر هذه المعركة الأولى.

يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا}، أي كما أن الله -عز وجل- أرسل الرياح وكما أن الأرض اختلفت استجابتها للماء كذلك أرسل الله -عز وجل- الرسل وكذلك الناس يختلفون في الاستجابة للوحي.

يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ...}.

سأذكر نقاطًا سريعة، أريدكم أن تتيقظوا.

تطور المعصية

قصص الأنبياء في سورة الأعراف له خاصية مهمة جدًا، نريد أن نلاحظها ونحن نتتبع الآيات، وهي قضية تطوّر المعصية وتطوّر الكفر؛ ذكرنا هذه القضية سابقًا.

هل ذكرناها في سورة الأعراف أم في سورة البقرة؟

ذكرناها في سورة الأعراف، صحيح، لكن أين؟

يقول تعالى: {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً} أي يفعلون الفاحشة أولًا، {قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا}، فتنتقل الأمور من مجرد أنه يفعل الفاحشة إلى أن يقوم بالضغط المجتمعي لجعلها شيئًا اجتماعيًا مقبولًا {قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا}، ثم يحولها إلى شرع، فالأمور دائمًا تتطور.

وتكلمنا في مسألة أن العالم لا بد أن يحتاط للأمور القابلة للتطور -التي قد تتطور- ويمنعها حتى لو كانت مكروهة فقط، وأنه قد يتساهل مع بعض الأشياء حتى لو نُهي عنها لكنها لا تتطوّر.

إذًا سنلاحظ في قصص الأنبياء -ونحن نفسر- أول ملاحظة وهي قضية تطوّر المعصية، ألتقط الشيخ عدنان عبد القادر في كتاب "جنى القلب الهائم في مقاصد السور ومحاورها" التقاطًا جميلًا جدًا -أراد دراسة قصص الأنبياء في سورة الأعراف-، وهو أن كل معصية يفعلها قوم ما، يأتي قوم آخرون بعدهم يتمادون في تلك المعصية ويزيدونها، فكأن الرسل كلهم يقاومون الأقوام كلهم.

على سبيل المثال: اتهم القوم سيدنا نوح -عليه السلام- هنا -في سورة الأعراف- بالضلال، لكن في قصة سيدنا هود -عليه السلام- اتهموه بالسفاهة، فكأنهم قالوا له أول ما جاءهم أنت ضال، فاستمر في الدعوة، فقالوا إذًا ننتقل إلى مرحلة أخرى فنتهمه بالسفاهة، فاستمر في الدعوة فأتى بآية -سيدنا صالح- فطلبوا معجزة أكبر، فنشروا الفاحشة في قوم لوط...،وهكذا هو التطوّر في الكفر.

الملأ

أيضًا نلاحظ أن من الكلمات المهمة جدًا جدًا في سورة الأعراف قوله: {الْمَلأُ}، وتكرر قوله: {الْمَلأُ} في القرآن من سبع عشرة إلى عشرين مرة تقريبًا أو أكثر قليلًا، فقد تأتي -تلك الكلمة- معرفة بالألف واللام أو مضافة.

سنتكلم عن معنى قوله: {الْمَلأُ} بالتفصيل.

وردت تلك الكلمة في سورة الأعراف سبع مرات، أما بقية السور فتكررت تلك الكلمة فيها كحد أقصى ثلاث مرات كسورة هود وسورة النمل.

لكن السورة التي تكرر فيها قوله: {الْمَلأُ} **-وكلمة الآيات-** أكثر من غيرها هي سورة الأعراف، وهذا من امتيازات السورة التي تجعلك تفهم واقع السورة.

أريد منك في أثناء قراءتك أن تلاحظ الفارق في الألفاظ المصاحبة لكلمة {الْمَلأُ} في سورة الأعراف.

إن أعطانا الله -عز وجل- التوفيق والسداد والعمر والوقت عندما نصل لقصة سيدنا موسى في سورة الأعراف سنجد أن هناك فروقات بينها وبين قصة موسى -عليه السلام- في سورة الشعراء، **من هذه الفروقات الرئيسة كلام الملأ وتحكمهم في سورة الأعراف.**

الداعية يتقرب للناس ليدعوهم لعبادة الله وحده

نعود إلى النقاط السريعة في قصة نوح -عليه السلام-، يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ...}، نلاحظ دائمًا أن سيدنا نوح -عليه السلام- ينتقل من الإرسال إلى التطبيق مباشرةً، أي من الأمر إلى التنفيذ مباشرة، فقال مباشرة: {يَا قَوْمِ}، **فنسبهم إلى نفسه حتى يكسر الكبر والفروقات.**

يقول تعالى: {يَا قَوْمِ}، أي أنا منكم وأريد الخير لكم، {يَا قَوْمِ} الدعوة ببساطة واضحة: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ} من الكلمات المكررة الواضحة دعوة للتوحيد.

فلا أطلب منكم مالًا ولا أطلب جاهًا ولا سلطانًا، -بل كل ما أطلبه هو أن- {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ}.

قال بعض أهل العلم في قوله: {مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ} إنهم كانوا يشركون مع الله، وهذا بالفعل ما حدث في قوم نوح -عليه السلام-، حيث ظهر فيهم الشرك.

فكأن الذي يشرك مع الله أحدًا كأنه لا يعبده، حيث قال نوح -عليه السلام- لهم في البداية: {اعْبُدُوا اللَّهَ}؛ فكأنه لم يعتد بهذه العبادة التي فيها إشراك، فالله لا يقبلها.

يقول تعالى: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ}، لماذا يطلب نوح -عليه السلام- هذا من قومه؟

عندما تأتي (إن) بعد أمر غالبًا ما تكون للتعليل، فلماذا أطلب منكم هذا؟

لأنني أخاف عليكم كما في قوله تعالى: {إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، حينما يشعر الناس بهذا الشعور وهو أنك تخاف عليهم وأن الدافع أنك تريد لهم الخير فأنا لا أريد منكم شيئًا، بل أريد لكم الخير.

ويؤكد نوح -عليه السلام- ذلك بقوله: {إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، أي لا أستطيع أن أصف لكم هذا اليوم، فهذا أمر لا تتحمله العقول لكن هو عظيم، وأخبر الله -عز وجل- أنه عظيم إذًا فهو عظيم.

في قوله تعالى: {إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ} تأكيد على ذلك الخوف، **لا بد أن يشعر الناس أن في كلامك هذا الخوف، أنك تخاف عليهم لا تريد أن تنتصر عليهم.**

فالداعية لا يريد أن يحقق انتصارًا ولا يريد الفوز على الناس، هو يخاف عليهم.

القلة المتخمة

يقول تعالى: {إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، فجاء الرد مباشرةً -فقال الملأ مباشرة- لم ينتظروا.

قال تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ}، أي أن الملأ هم الذين ردوا، رغم مخاطبة سيدنا نوح -عليه السلام- للقوم جميعهم، فلم يقل "يا أيها الملأ".

على الرغم من وجود نداءات في القرآن كقوله: {يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي}[النمل: ٣٢]، لكن النداء هنا كان: {يَا قَوْمِ}

من الذي أجاب؟

الملأ؛ خاف الملأ على مراكزهم.

ما معنى كلمة (الملأ)؟

قال العلماء الملأ لها معنيين، اختار بعض المفسرين معنى واختار بعضهم معنى آخر، واختار الأغلب الجمع.

المعنى لكلمة الملأ هو الشيء المملوء.

- فقالوا إن الملأ هم الذين يملؤون أعين الناس وقلوبهم، فينظر الناس لهم وهم منبهرون بهم، يملؤون لأنهم ملأى بالمال وبالسلطان وبالجاه؛ فينظر الناس إليهم فتمتلئ قلوبهم وعيونهم بهؤلاء، ويكونون منبهرين بهم. هذا أحد معاني كلمة الملأ، واختاره كثير من المفسرين.
- قالوا أيضًا من معاني كلمة الملأ: "تمالأ فلان وفلان" أو "تمالؤوا على ذلك" أي اتفقوا وتعاونوا، فقالوا الملأ هم الذين اتفقوا على رأي واحد واختاروا رأيًا واحدًا، وهذا المعنى اختاره ابن عاشور.
- أما الأصفهاني –صاحب المفردات– اختار المعنيين معًا، وهما أن هؤلاء –الملأ– قلة عندهم كثرة من الجاه والسلطان وهم ملأى بذلك، فهم يملئون أعين الناس، ورأيهم واحد، أي يتفقون على رأي واحد معًا، فهم **القلة المتحكمة**.

تحتاج كلمة (الملأ) إلى دراسة قوية جدًا في القرآن؛ لأن هذا الأمر يعيشه العالم كله، وما الديموقراطية إلا وثن يلعب به هؤلاء القلة كغيره من الأوثان المطروحة على الناس.

يطرح وثنًا كل فترة، يمسك بخيوطه قلة يخدعون الناس بإيهامهم أنهم يشاركون ويقولون آرائهم، ثم الذي يمسك بهذا الوثن ويحركه هم هذه القلة المتحكمة في العالم، وما اليهود منا ببعيد عن ذلك.

وأفضل من كتب عن (الملأ) في القرآن الشيخ حسن صالح الحميد في كتابه "سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم"، حيث قام بعمل بحث كامل عن قضية الملأ في القرآن، وغيره من الكتاب وخاصة المفسرين في شرح آية سورة الأعراف.

خاف الملأ –هؤلاء القلة المتحكمة– مباشرة على مراكزهم وسلطانهم، بالرغم من أنهم قلة لكنهم تصدروا وأجابوا ولم يسكتوا.

قال لهم سيدنا نوح: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، فهم إما يردوا على دعوة التوحيد فيثبتوا أن الأصل الشرك لا التوحيد، وإما ينفوا يوم القيامة.

لكنهم لم يتكلموا في التوحيد ولم يتكلموا عن يوم القيامة، بل تكلموا عن الشخص، وهذا دائمًا من أفعال الملأ.

قضية ماذا يفعل الملأ في القرآن قضية كبيرة جدًا ومبحث مهم –أشار إلى جزء منه الشيخ حسن صالح حميد–، **ومنها هدم الرسل وشخصنة الدعوة** كما في قوله: {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا}[هود: ٢٧]، أي نراك في ضلال وأتباعك أراذل، فلماذا نتبعك!

لم يتكلموا في مضمون الدعوة ولم يناقشوا مضمونها، انتقلوا إلى الشخص المتكلم فقالوا: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}، أربع تأكيدات:

١. {إِنَّا} أي جميعنا للتوكيد، فكلنا نرى الرأي نفسه، {إِنَّا} يؤكدون مجمعين، {إِنَّا} أصلها إننا.
٢. لم يقولوا (لنظنك)، بل قالوا: {لَنَرَاكَ} بلام التوكيد، وكأن الموضوع عندهم رأي العين وأمر منتهي واضح كوضوح الشمس.
٣. قالوا: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي} ولم يقولوا (إنا لنظنك بك ضلال)، وقولهم: {فِي} للدلالة على الانغماس.
٤. قالوا: {فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} أي واضح.

دائمًا ما يكون خطاب الملأ خطابًا إعلاميًا، أي لا بد أن يجذب الناس، والملأ غالبًا لا ينزلون إلى الأرض، بل يحركون.

متى ينزل الملأ بأنفسهم إلى الأرض؟

ينزلون إذا أحسوا بخطورة، كما في قوله تعالى في سورة ص: {وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا}[ص: ٦]، فنزلوا حين أحسوا بالخطورة، وجاءت سورة ص بعد سورة الصافات.

فعندما يصطف أهل الإيمان كما في قوله: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ}[الصافات: ٨٣] -عندما يتشايع أهل الإيمان مع بعضهم- ويأخذ كل واحد مكانه {وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ}[الصافات: ١٦٤] -في سورة الصافات- يشعر الملأ حينها بالخطورة وينزلون: {أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ}.

فيكتفي الملأ في بادئ الأمر بشيئين وهما:

١. تحريك السلطة، فهم المسيطرون على السلطة، كما سيطروا على فرعون هنا في سورة الأعراف، فالمتحكمون هم الملأ.
٢. أو الخطاب الإعلامي الذي يضل الناس.

يقول تعالى: {قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا} للتأكيد والاجتماع، {لَنَرَاكَ} أي وضوح في الرؤية عندهم، {فِي ضَلَالٍ} أي في انغماس، {مُّبِينٍ} واضح.

كيف يرد الداعية على الملأ

حينما ينتقل الملأ إلى هذه المرحلة الإعلامية لا بد أن ينطلق الداعية أيضًا ليرد عليهم.

هل قال نوح -عليه السلام-: "يا أيها الملأ" {لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ}؟

لا، بل: {قَالَ يَا قَوْمِ}، فوجه كلامه لقومه جميعًا، ولم يلتفت للملأ، ولم يجعل الخطاب خاصًا بهم، هم يريدون أن يجعلوا الدعوة خاصة، لكنه جعلها عامة.

الملأ خاطبوا القوم ليضلوهم، وهو خاطب القوم، فهو ينازعهم في الأشخاص.

وضح هذا المعنى؟

أي أن الملأ ردوا عليه؛ حتى لا يسمع الناس كلامه، لكنه خاطب الناس ولم ينشغل بالملأ؛ لأنه لو خاطب الملأ لأصبح الخطاب ضيقًا وينصرف الناس لظنهم أنه ضال فعلًا.

فدافع عن نفسه وبرّأ نفسه و: {قَالَ يَا قَوْمِ}، ولم يلتفت للملأ.

انظر إلى رده، هم استخدموا المؤكدات، انظر ماذا قال نوح عليه السلام، الرد المتوقع على كلمة {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ} أن يقول (لستُ في ضلال)، لكنه قال: {لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.

ردود سيدنا نوح من أقوى الردود في القرآن خاصةً ردوده في سورة هود.

يوجد درس لا أتذكر عنوانه، لكنه كان حول سورة هود، أظن شرحت في هذا الدرس قضية كيف رد نوح –عليه السلام– على كل جملة قالها القوم.

هم في آية واحدة في سورة هود قالوا ثلاثة جمل، هو رد على كل جملة تفصيلًا، فكذلك هنا –في الأعراف– رد عليهم ردًا مفصلًا.

الباء – لم ألامس الضلال ولو مرة واحدة

قال أولًا: {لَيْسَ بِي}، والباء للدلالة على مجرد الملابسة أو المصاحبة، فهو ليس منغمسًا في الضلال، بل ولم يلامس الضلال ولم يصاحبه لحظة.

قال: {لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ}، قال بعض أهل العلم –منهم الزمخشري وغيره ورجح الطيبي هذا المعنى–إن معنى قوله: {لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ} أي ليس بي ولو مرة واحدة، فلم أضل ولو مرة واحدة، وإن كان بعض المتأخرين اعترضوا على هذا المعنى كابن عاشور وغيره، لكن المعنى مقبول.

إذًا قوله: {لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ} أي لم ألامس الضلال ولو مرة واحدة، أنت تقول إني في ضلال! أنا لم ألامسه ولم أصاحبه ولو مرة واحدة – {لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ} –.

ولكني رسول – إثبات قمة الهداية

كان ممكن أن يكتفي بنفي الاتهام فقط، فهم اتهموه اتهامًا، فينفيه عن نفسه فقط، لكن **رده فيه نفي وإثبات**، فنفى عن نفسه أن يلامس الضلال ولو مرة واحدة، ثم قال: {وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} أي أني في قمة الهداية، أنا لست مهتديًا فقط بل أنا رسولٌ ومرسلٌ من رب العالمين.

أُبَلِّغُكُمْ – الاستمرار في الدعوة والتأكد من وصولها

ثم أنا لن أتوقف، بل {أُبَلِّغُكُمْ} بصيغة المضارع.

رغم هذا الكلام الذي تقولونه {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ} وغيره أنا مستمر في الدعوة إلى الله والدعوة مستمرة.

قال: {أُبَلِّغُكُمْ}، قيل إن صيغة المضارع تفيد أنكم لن تمنعوني عن الدعوة، فنوح –عليه السلام– لم يقل "أعلمكم"، **فالبلاغ أعلى من الإعلام، البلاغ أن يبلغك الأمر جيدًا، ليس مجرد أن أعلمك الأمر دون التأكد هل فهمت تلك المعلومة أم لا، فالبلاغ أني أكرر ذلك ليلًا ونهارًا وأصرف الأقوال وفي كل الأحوال.**

رسالات – كثرة الحق الذي معه وتمسكه به كله

يقول تعالى: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ}، جاءت جمعًا رغم أنها تأتي أحيانًا في سورة الأعراف مفرد، تأتي في سورة هود أحيانًا مفرد أو جمع، لماذا جاءت هنا جمعًا؟

فنوح –عليه السلام– يدافع عن نفسه،

- وقالوا لكثرة ما معه من حق، فالملأ يقولون إنه في ضلال! وهو –عليه السلام– معه حق كثير،
- أو يكون المعنى أنه لن يتخلى عن رسالة واحدة من رسالات ربه. أنتم تريدون منعي! والله لن أتخلى ولو عن كلمة واحدة من كلمات ربي، سأبلغكم الرسالات كلها ولن أتوقف.

رَبِّي – هذا أمر لا خيار لي في تركه

في قوله: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي} لماذا قال {رَبِّي} ولم يقل (رسالات ربكم)؟

فالغالب في خطاب الأنبياء أن يقولوا (ربكم)، فلماذا قال نوح –عليه السلام– {رَبِّي}؟

لأن هذه الرسالات أمر من ربي، ليس لي اختيار في تركها، أنا عبد! وهو ربي، أمرني فأنا أبلغ.

وَأَنصَحُ لَكُمْ – بعد البلاغ أعلمكم كيفية التنفيذ

قال: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي}، أي لا أكتفي بالإبلاغ، بل بعد أن أبلغكم أوامر الله أعلمكم كيف تنفذونه بطريقة طيبة، فقال: {وَأَنصَحُ لَكُمْ}، لم يقل: (وأنصحكم).

قيل إن اللام في قوله {وَأَنصَحُ لَكُمْ} أي أنها –هذه النصيحة– خالصة لكم، فلكل شخص منكم النصيحة الخاصة به.

ما معنى كلمة النصح؟

قالوا إن النصح جاء من معنيين، وهما

- استخلاص العسل من الشمع والشوائب، فعندما تصفي العسل تخلصه من الشمع والشوائب تكون بهذا تنصح العسل،
- أو إن النصح هو خياطة الثياب لستر البدن، فيقولون نَصَح الثوب.

فقالوا النصح يحتوي على معنيين وهما الكلام الصافي الخالص من كل شائبة مع حب الستر والمراعاة، فتريد ستر الشخص الذي أمامك وتخيط نقصه.

فالكلام الصافي الخالص النقي مع الشفقة والرحمة هذا هو النصح، لكن الكلام الفظ الغليظ مع القسوة لا يسمى نصحًا حتى لو الكلام صحيح.

أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ – لأنكم أول الأقوام ليس لديكم علم بشدة عقاب الله

يقول تعالى: {وَأَنصَحُ لَكُمْ}، وذلك كله لأني {أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.

ما معنى قوله: {أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}؟

قيل إن قوم نوح كانوا أول الأقوام، فلم ينزل قبلهم عذاب أو إهلاك عام، أي الأقوام كلها اللاحقة لهم كان يقول لهم نبيهم: "اعتبروا مما حدث مع قوم نوح" أو "اعتبروا مما حدث مع قوم هود" أو "اعتبروا مما حدث مع قوم صالح".

فلم يُعذب أحدٌ قبل قوم نوح –عليه السلام–؛ فقال: "أعلم ماذا يحدث إذا أراد الله إهلاك قوم، أنا أعلم ذلك لأني أعلم شدة عقابه وأنتم لا تعلمون"

يقول تعالى: {وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، أترفضون دعوتي لأني رجل منكم؟ بل إن هذا أدعى للقبول!

أنا أنذر وأنتم تتقون والله سبحانه وتعالى يرحم

يقول تعالى: {أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ}، ماذا يريد منكم هذا المنذر؟

يقول تعالى: {وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، **هو لا يريد منكم إلا الإنذار ثم التقوى ثم تحصيل الرحمة**، أنا أقوم بالإنذار، وأنتم تتقون، والله –عز وجل– يرحمنا جميعًا كما في قوله: {لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

الإعراض حتى وصلوا لأنهم لا يروا الآيات

لكن النتيجة كانت: {فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ}.

المتوقع أن يكون الترتيب {فَكَذَّبُوهُ} {وَأَغْرَقْنَا} {فَأَنجَيْنَاهُ}؛ فالإنجاء يأتي بعد الإغراق.

قالوا إن الترتيب المتوقع أن يكون (فكذبوه، فأغرقنا القوم، ثم أنجينا)، لكن **الله –عز وجل– قدم الإنجاء لطمأنة أهل الإيمان، فهم دائمًا في معيته –سبحانه وتعالى–.**

يقول تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ...}، لم يقل وأغرقنا (الظالمين) أو (الكافرين) بل قال -سبحانه وتعالى-: {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}؛ لماذا؟ لأن **سياق سورة الأعراف كله عن التعامل الخاطئ مع الآيات من تكذيب بها وجحدها والاستكبار عنها والانسلاخ منها**.

يقول تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}.

ذكرنا من قبل أن (إن) للتعليل، يقول تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا} أي أصروا واستمروا، {قَوْمًا} أي كلهم اجتمعوا على شيء، وكلهم اشتركوا في هذه الجريمة، {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ} على وزن فعيل، وهذه الصيغة للفاعل أقوى من صيغة فاعل، فلم يقل (عامين).

فال (عامي) هو الذي يصيبه العمى لكن هذا العمى قد يكون مرحليًا أو وقتيًا، لكن حينما يستقر العمى ويصيب البصيرة ويصبح ملازمًا للإنسان تأتي هذه الصيغة (عَمِينَ).

فقالوا هذا عمى ملازم أشبه بقوله: {وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا}، فكذلك {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ} أي أعرضوا عن الآيات، بل وصلوا إلى مرحلة أنهم لم يعودوا يروا هذه الآيات مطلقًا، {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ}.

نعوذ بالله -عز وجل- من عمى البصيرة، ونسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا بصيرة القرآن وفهم القرآن والعمل بالقرآن، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته.

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، سبحانك الله وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرًا.